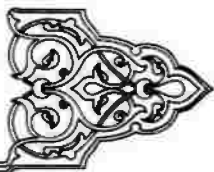


الغرب المحير بين المقتونين والرافضين



«حيث تغيب الآلهة تسود الأشباح وتسيطر».

(مقولة لنوفاليس أحد أدباء الرومانسية)

«إن الاعتقاد بضرورة تبنى الشعوب غير الغربية لقيم ولؤسسات ولحضارة غربية، هو أمر غير أخلاقي في نتائجه».

(صامويل هنتنجتون: «الغرب الفريد» ص ٤١)

- ١ -

إذا أراد المرء أن يتنبأ بالتطورات المستقبلية للغرب وللشرق الإسلامي - أو أراد على أقل تقدير العوامل التي تتطلبها التطور المرجو - فعليه في بادئ الأمر أن يقوم بعملية حصر لتلك العوامل. عليه أن يبدأ بالسؤال التالي: ماذا يحدث على الجانبين الآن؟.

أعتقد أن أنسب الناس وأقدرهم على الإجابة عن هذا السؤال هم من يتمتعون بتفكير نقدي سليم، وأتيحت لهم الفرصة بأن يعيشوا في الجانبين. أعتقد أن حكم هؤلاء على الوضع الراهن ورأيهم، لجديران بالإجابة عن سؤالنا.

وإنني إذ أقول ذلك، يخطر في ذهني هؤلاء الطلبة الزائرون الذين يعودون إلى بلادهم بعد استكمال دراساتهم في الغرب (هؤلاء يشاهدون بلادهم بنظرة جديدة)، وهم بطبيعة الحال غير اللاجئين إلى الغرب، سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية؛ إذ إن الآخرين - نظرًا لوضعهم - لا يملكون إلا إيداء الإعجاب الشديد بالبلد المضيف أو الاعتماد الكلي عليه، وبالتالي أراهم غير قادرين على ممارسة النقد التزيه أو حتى التفكير بشكل نقدي سليم.

ولتحقيق ذلك، سأقوم بخلق شخصيتين من بنات أفكارى لطالبيين مسلمين نمطيين يعيشان في الغرب، وسأقوم بتوجيه الأسئلة إليهما عن هذا الغرب، حتى أصفه من خلال عيونهما. أما في الفصل التالي، فسأقوم بهذه التجربة مع طالبين أوروبيين - هما أيضًا من خيالي - اعتنقا الإسلام، فأسألهما، عن انطباعاتهما عن العالم الإسلامي. إحدى الشخصيتين اختارت

هذا العالم وطنًا لها، أما الأخرى فلا ترى داعيًا لهجرة وطنها الأصلي، ومن خلال هذه التجربة سنشاهد هذا العالم - العالم الإسلامي - من خلال عيون غربية عنه.

- ٢ -

ينتمى الطالب الأول الذى نستمع إليه، إلى ما يمكن أن نسميه بالإسلام الإسمى، فهو مسلم بالميلاد والجذور والبيئة، أكثر منه مسلمًا بالممارسة، هذا الطالب طالما حلم بالغرب قبل أن تطأه قدماه. منذ طفولته كان الغرب بتقدمه مثالًا له (كان منذ طفولته يضع تقدميته كمثال يجب الوصول إليه حتى في فسادها الماركسى).

فلا غرابة إذا في أن يحاول تشرب هذه الحضارة الغربية التى طالما عشقها، حتى إنك لا تميزه عن محيطه الغربى الذى يعيش فيه.

إننى لأتحدث عن تجربة وخبرة؛ حيث إننى انتقلت عام ١٩٥٠ وعمرى آنذاك ١٩ عامًا من ألمانيا المُقسَّمة، المهزومة، المحتلة، والمنكسرة إلى «يونيون كوليج - Union College» في نيويورك، في قلب جنة ما بعد الحرب العالمية الثانية، أمريكا في قمة ازدهارها.

لقد كان تأثير أمريكا منذ زمن - والآن الغرب بأكمله - على المهاجرين من الشباب أشبه بتأثير المخدرات التى تصور لهم حياة كاملة أفضل. فالكل يتخيل إمكانية تحقيق أى شىء وكل شىء هنا، هنا في هذا العالم؛ حيث يجد النشطاء والمثابرون الفرص العظيمة بمتهى السهولة، حتى يخيل لهم أنها ملقاة في الشارع ليلتقطوها.

أما أسباب هذا التصور، فواضحة. فالغرب متقدم تكنولوجياً بدرجة عالية جدًا. الغرب يعيش بعد اختراعات القرن العشرين ثورته التكنولوجية الثالثة؛ التى تقلب صناعة المعلومات رأسًا على عقب.

فالعالم لم يعد هو العالم نفسه منذ اختراع الإنترنت.

أعتقد أن وصف الطالب المسلم - بالميلاد - للغرب الذى يكن له تقديرًا كبيرًا سيكون كالتالى:

كل ما يتعلق بالتكنولوجيا - بما في ذلك الطب والبيروقراطية - يسير على أكمل وجه. تسود الكفاءة كل المجالات، مثل الاقتصاد والإدارة والصحة والتعليم وغيرها. يلتزم غالبية

المواطنين بالقوانين، ويطبق الدستور بشكل روتيني في الدولة. فدولة الدستور حقيقة وواقع ملموس. والحديث عن الرشا قليل جدًا، والقوات المسلحة تدين بالولاء التام للحكومة المدنية المنتخبة، ولا يتعرض أتباع الأديان والمعتقدات المختلفة للسجن أو التعذيب. والدولة تتحمل مسؤولية مواطنيها من المهد إلى اللحد. كما تتحمل الدولة مسؤوليتها في المحافظة على البيئة. ونادرًا ما ينقطع التيار الكهربائي أو المياه أو التدفئة. (عند هذه النقطة من وصف الغرب، يرغب المرء - بوصفه مواطنًا يعيش فيه - في التوقف؛ حيث يشعر بمثل شديد. أما بالنسبة لمواطن من العالم الثالث، فما ذكر ليس من التفاهات بشيء، بل كلها إنجازات يحسد الغرب عليها). فالفرد يتمتع بموقع المركز، سواء في الدولة أو المجتمع أو الاقتصاد بسوقه المشبع حتى التخمّة. هذا الفرد يتمتع بأقصى حماية من قبل الشرطة والقضاء، ضد أي ظلم يقع عليه أو تعسف ضده. كما يقوم الأفراد باختيار حكوماتهم بحرية تامة. العملة ثابتة، وكل ما يقوم بشرائه من منتجات وأدوية سليمة وغير مغشوشة، فهناك رقابة صارمة على الجودة. وهنا في الغرب لا يجد العاطل عن العمل نفسه مضطّرًا إلى مديده ليتسول. حتى الاضطرابات العمالية لا تتدخل الشرطة لإنهائها!

الفكرة والقيمة السائدة هي الحرية والتحرر. التحرر من الظلم والقهر والخوف والجوع والندرة والرقابة واللوائح، وحتى الحياء. هنا تسود حرية إبداء الرأي، وحرية التجمع وحرية الاعتقاد، وحرية اختيار مكان الإقامة، وحرية أداء الخدمة العسكرية. ومن خلال ملاحظتنا لسوق العمل - وكذلك ملابسها - يتبين لنا أن كافة العوائق قد زالت تمامًا من طريق المرأة لتحقيق ذاتها. فالتحرر الجنسي أصبح - حقيقة ملموسة - لقد تحررت المرأة تمامًا، والقانون والمبدأ السائدان بين الجنسين هو: ما يهواه المرء مسموح به. ويتضمن هذا بطبيعة الحال الاعتراف بحياة الشواذ مقبولة ومتساوية مع غيرها. لم يصبح الشواذ في حاجة إلى التستر أو الاختفاء، بل بالعكس يمكنهم اليوم إنشاء تنظيم خاص بهم.

بجمل القول: ينظر طالبنا المسلم المتدمج في الغرب إلى هذا العالم نظرة شديدة الإيجابية؛ حيث يراه أقصى ما بلغته الحضارة الإنسانية من مراحل وأزاهاء، وبالتالي يحق للغرب وحضارته أن يسودا العالم.

نجد في مقابل هذا الطالب في الغرب نوعية أخرى من الطلبة الذين يلتزمون الإسلام ويرفضون الغرب المذكور سابقاً - رغم مميزاته - جملة وتفصيلاً، بل إنهم يلعنونه بشكل مطلق، حتى إن المرء كثيراً ما يتساءل: لم لا يعودون إلى أوطانهم ليركوا «الشیطان الأكبر» الذي يكرهونه لحاله؟.

ونحن نريد الآن أن نتبع مسار تفكير أحد هؤلاء الطلبة، وهو بطبيعة الحال شخصية متخيلة وليست حقيقية. إنه يسوق مسوغات منطقية وحججاً قوية لحكمه السلبي على الغرب، شأنه شأن زميله المغربي بالمغرب.

يبدأ هذا الطالب أول ما يبدأ بتوجيه نقده إلى النزعة العقلانية الغربية، والتي يرجع إليها الفضل في ظهور ما يسمى بـ «مشروع الحداثة»؛ منذ القرن الثامن عشر.

فالتاريخ الحقيقي والفعل للغرب منذ عصر التنوير، لم يكن تحقيقاً للعقل بقدر ما كان سلسلة متتالية من الفظائع والأعمال غير الإنسانية، مثل: عمالة الأطفال، تحويل قطاعات ضخمة من المزارعين إلى عمال في قطاع الصناعة وما ترتب على ذلك من أضرار للأراضي الزراعية، تجارة العبيد والتفرقة العنصرية، استعمار العالم، إشعال حريين عالميتين مدمرتين^(*)، استخدام أسلحة كيميائية ونووية، إرهاب تمارسه الدولة تحت شعارات أيديولوجية كالبولشفية، وكذلك نزعات كالشوفونية الفاشية، وليس آخر هذه الفظائع عمليات التطهير العرقي في وسط أوروبا كما هو الحال في كرواتيا والبوسنة وصربيا.

لا نستطيع أن ننفي عن آباء التنوير المسؤولية غير المباشرة عن هذا الفصل الفريد لفكرة عظيمة، هي سيطرة العقل هل أفراد مستقلين وعلى تصرفاتهم. فمفكرون من أمثال دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦)، وفولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨)، وفريدريك الكبير (١٧١٢ - ١٧٨٦)، وليسينج (١٧٢٩ - ١٧٨١)، وجوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢)، ومن قبلهم مونتاني (١٥٣٣ - ١٥٩٢)، وديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ولوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤)، وكذلك ليبنتس (١٦٤٦ - ١٧١٦)، هؤلاء جميعاً لم يكونوا ملحدین ناكرين لوجود إله، ولكنهم كانوا مؤمنين بإله كعلة أولى، ناكرين للوحي الكنسي، مؤمنين بإله واحد بعيد وليس بصورة الثالوث الإلهي الذي تتبناه الكنيسة المسيحية. اعتمد إيمانهم على ملاحظة الطبيعة وتأملها والتفكير فيها، وليس

(*) ويحق لنا أن نضيف هنا: صناعة إسرائيل والانحياز الكامل لها، وانتهاك كل القيم الإنسانية في سبيل ذلك - (المترجم).

على التسليم بالوحى الكنىسى. لم يرغب هؤلاء فى إلغاء فكرة العقيدة أو الديانة ولكن اتجهت جهودهم إلى القضاء على سيطرة الكنيسة على معتقدات البشر وعلى نفوذ الكهنوت.

ولقد استغل بعض التنويريين الإسلام (كعملية التفاف) للإسراع بعملية التحرر من نير الكنيسة. لقد حقق ليسينج هذا بشكل مناسب من خلال مسرحيته «نathan الحكيم» التى كتبها عام ١٧٧٩ وأبرز فيها مثالية وإيجابية المسلم.

أما فولتير، فقام بمحاولة سابقة - غير لائقة - حيث قام فى عام ١٧٤٢ بكتابة مسرحية «ماهومت النبى الكاذب». لقد أراد من خلال عمله نقد الكنيسة من خلال هجومه على الإسلام^(١). ولقد كافأه فريدريك الأكبر على عمله هذا بمنحه وسامًا.

أما بالنسبة لأعمال كانت النقدية، فلم تكن ضد الدين بقدر ما كانت موجهة ضد الكنيسة، فلم يدلل كانت - ولم يرغب أصلاً فى التدليل - على عدم وجود الله فى عمله «نقد العقل» (١٧٨١)، ولكن أراد نفى إمكانية الاعتماد على تصورات ميتافيزيقية تتعدى نقد المعرفة، وبالتالي، تتحول حتّى إلى لعب بالألفاظ كما كان سيقول فيتجنشتين. لقد لجأ كانت فى عمله التالى عام ١٧٨٨، «نقد العقل العملى» إلى أن الفرضية المسلّمة «الله» ضرورة لمسيرة المجتمع. ولكن بالرغم من ذلك، أدى التحرر من سيطرة الكنيسة على البشر كنتيجة لعملية التنوير، إلى تهميش دور الدين. لقد احتل الإنسان الفرد مكانة الله، بحُساب أنه هو - الإنسان الفرد - مقياس ومعيّار كل شىء. لقد تمادى الإنسان فى تقدير ذاته وقدراته حتّى أصبح الوثن الجديد لهذا العصر.

لم يكن فى مقدور غالبية الناس التعايش مع ما يمثله كانت من موقف اللاأدرية إزاء المعرفة واللا معرفة، بمعنى أن يتأرجح ما يتعلق بالموقف الفلسفى والدينى، أى أن يحيا وكأن الله موجود دون أن يملك دليلاً علمياً على هذا الوجود؛ ولذا كان الفرد العادى فى القرن الثامن عشر يميل إلى الأخذ بفرضية باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢): إذا ما أخذ المرء بمبدأ الإيمان بالله،

(١) لقد قام القيصر فريدريك هذا بالتفاوض عام ١٧٧٥ مع ألف «عائلة محمدية» لستوتونا بروسيا الغربية، وقيم لهم فيها يونا وينشن لهم بها المساجد (جاء هذا فى خطابته إلى فولتير فى ١٣ أغسطس). كان فريدريك يعنى تماماً أن صديقه فولتير لا يعرف عن محمد أكثر من معرفته عن إمبراطور الصين (خطاب ١٠/١٧٧٦). اعترف فولتير فى خطابه إلى فريدريك أن «محمد لم يأت بفعل الخيانة الذى يستخدمه فولتير موضوعاً لهذه المسرحية»، ويعتذر عن جهله بالتاريخ وعنه به بمقولة يشب لها الولدان: «من يجرؤ على إشعال حرب فى بلده باسم الله!!» فى الخطابات المتبادلة بين فولتير وفريدريك. Verlag Zurich, 1992.

فإنه إذا تبين أن ذلك حق، فاز حينئذ بكل شيء، وإذا تبين خلافه فإنه لن يخسر شيئاً. ولكن كان من البديهي، بل من الضروري، أن يؤدي القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر، قرن الإلحاد، ومثليه الأساسيين: لودفيج فويرباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢)، وشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢)، وكارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣)، وسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩).

وفي اللحظة التي أصبح فيها الله مجرد إسقاط لرغبات البشر، أصبح المجال مهياً لتأليه الإنسان في صورته المختلفة، سواء كان ذلك بتأليه الجماعة في الدولة (الماركسية، الاشتراكية، الفاشية)، أو تأليه الفرد (الفردية، الليبرالية، الرأسمالية، النزعة النفسية).

ولذا، أمكن لفرديش نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠) أن يعلن موت الله^(٢)، واختفاء صورة الإله كما وردت في المسيحية. وبهذا الإعلان مهد نيتشه للقرن العشرين المثقل بالأيديولوجيات الكثيرة المختلفة وبصراعاتها.

لقد أيقن من منطلق خبراته الخاصة ما عرفه المسلمون من قبل، وهو أن اقتصار الدين على المجال الخاص للشخص، هو أولى الخطوات للقضاء عليه والتخلص منه.

منذ تلك اللحظة عاشت الإنسانية ما لم تره من قبل وما لا مثيل له: فالحضارة الغربية هي الحضارة الأولى من نوعها التي تظن أن بإمكانها الحياة بدون الإيمان بما هو مقدس، بدون إله وبدون غيبات، وذلك عن طريق سلوكيات تتسم بالإلحاد، حتى وإن لم تؤمن نظرياً بالإلحاد. تحول الإلحاد في المعسكر الاشتراكي إلى البديل الديني، خاصة في كلٍّ من ألبانيا والصين الماوية.

أما في ألمانيا الديمقراطية، فلقد أثبتت إحصاءات أجريت بعد ١٠ سنوات من زوال الحكم الشيوعي عنها أن النجاح لم يحالف النظام إلا من خلال محاولته فرض العقيدة الشيوعية وتعليم الإلحاد في المناهج الدراسية. وخير دليل على ذلك طقوس الشباب، فطبقاً لها كان كل من يؤمن بالله بوصم بالخروج عن المجتمع، بل يُعدّ من المهمشين^(٣).

أما اليوم، فالإحصاءات تعطي صورة عن إيمان الشعب الألماني، كما يلي: يُعدّ ٤٧٪ من الألمان أنفسهم لا دينيين، و ٩٪ يسمون أنفسهم ملحدين، ويرتفع هذا الرقم إلى ١٨٪ في ألمانيا

(٢) لقد أثبت نيتشه في كتابه الأول: «Die Fröhliche Wissenschaft» أن أهم وأعظم الأحداث هو أن الله قد مات، أي أن الإيمان بإله المسيحية أصبح غير مقبول، وقد أخذ يلقي بظلاله على أوروبا. انظر Nietzsche الجزء الأول ص ٤٨٩.

(٣) لن تجد اختلافات بين استبيانات الناس في ألمانيا الغربية والشرقية إلا في مجال الدين. انظر: FAZ ٢٢/٤/١٩٩٨، و ١١/٢٤/١٩٩٨.

الشرقية سابقًا. أما بالنسبة لمن يُعدُّون أنفسهم مؤمنين، فيذهب ٩٪ منهم بانتظام إلى قداس الأحد، ولا ينبغي أن نعجب إذا وجدنا ٣٢٪ من البروتستانت الألمان يؤمنون بـ «قوة عليا»، بينما ٣١٪ منهم يؤمنون بالله الكنيسة.

إنهم بإيمانهم هذا إنما يتخلون ويتعدون، بدون وعي، عن صورة إله الوحي، ويتجهون بتقديسهم، أيضًا بلا وعي، إلى الصورة الفلسفية لإله الطبيعة، وهي صورة تبناها من قبل مفكرون يونانيون سبقوا ظهور الديانة المسيحية. وهذا المنطق يفسر خروج الآلاف من المسيحيين من الإيمان الكنسي، فلقد فقدت الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا عام ١٩٩٧ وحده ١٢٤ ألفًا من أعضائها. وهذا التطور يعود إلى ما يدور في عقول الناس من تفكير، أكثر مما يعود إلى ضريبة الكنائس المالية.

وإذا كانت الإحصاءات قد بينت في عام ١٩٩٦ أن ٣٩٪ فقط من الألمان ينتمون إلى الكنيسة الإنجيلية، و٣٣٪ إلى الكنيسة الكاثوليكية، فإن ذلك يعنى بطبيعة الحال أن ربع تعداد السكان الألمان بلا مذهب ديني، ومن ضمنهم الملحدون.

وتُعدُّ بعض الطرق السوقية والفجة لنشر نظريات علمية، عاملاً أساسياً في هذا التطور. فنظرية داروين - على سبيل المثال - تجعل البعض يؤمن بأن كل شيء ما هو إلا نتيجة لسلسلة من التطورات تقع بمحض الصدفة، والتي يمكن إعادة بطريقتة عكسية «reverse engineering». واستناداً إلى نظرية النسبية لأينشتاين، يعتقد البعض أنه لا يمكن الثقة بأى شيء. قال ستيفن هاوكنج إنه لا أهمية لوجود الله لتفسير بدء الخليقة؛ حيث يُستبدل بذلك الـ «Big Bang». أما الوصول إلى سر الحياة والروح والوعى، فهو مسألة وقت لا غير، كما يراها رجل الشارع العادى، وستكفل الكيمياء الحيوية وعلوم الكمبيوتر بحل هذه الألغاز.

ولا يختلف إنسان العصر الحديث - إنسان القرن الحادى والعشرين - كثيراً عن سلفه - إنسان القرن التاسع عشر - فهو كسلفه - وإن اختلفت حداته وتطورات الشعارات العلمية - يرى ويتوقع أن يفسر الوعى من خلال معطيات مادية، وأن يتوصل إلى صيغة للعالم على أساس ميكروفيزيقى، بمقتضاها يمكن تفسير كل وجود العالم من خلال حجر بناء أساسى دون الحاجة إلى اللجوء إلى تفسيرات فلسفية.

وتتمثل أعراض هذه الحالة فى عملية الاستبعاد لكل ما هو دينى من المجال العام. هذا لا يدل فقط على تحول أوروبا الغربية عن المسيحية، ولكنه يدل على ما هو أعظم أثراً من ذلك، وهو تسلل ودخول نزعة مادية فظة إلى فكر ووجدان الكثير من الناس فى الغرب. هذا الإنكار

لله الذى يعيشه الغرب، هو عدم مبالاة بأمور الآخرة أكثر منه إلحاذًا، وتأليه الإنسان، سيكون لها على المدى الطويل آثار وخيمة العاقبة، بل سيجلبان الخراب بعينه، وإن طال الأمد.

يعرب عن هذا رأى أوتو فون هابسبرج؛ إذ يقول: «إن أوروبا بلا مسيحية كبيت من الورق لا بد وأن يهوى»^(١).

ومن قبله توصل جلبرت سيسترتون في «الهرطقة - Heretics» إلى حكم مفاده: إذا ما وصل المرء بتفكيره إلى ما ستكون عليه الحداثة، فإنه سيراهها تقود إلى الجنون بعينه. ولكن هذا لن يقع بسرعة، فالمجتمع الذى أصابه الإلحاد سيستفيد لفترة من القيم المتوارثة والسلوكيات التى تمرس الإنسان عليها، وكذلك بعض المعتقدات التى تبرز فيها الخرافة مع معتقدات جوته، ولكن سرعان ما ينتهى هذا الرصيد. فسرعان ما يبدأ البشر فى البحث عن اللذة، ومحاولة الحصول على كل ما يمكن من ملذات الحياة فى عمره المحدود، ويتزايد - بالطبع - إهمالهم للصالح العام وللعائلة. ويمكن للمرء أن يتعلم كيفية التمتع بالحياة فى معاهد «البحث عن السعادة». هذه الظاهرة - على ما اعتقد - أبلغ من أى قول عن العقلية الحاكمة لزماننا هذا، حتى أصبح الإغلاء من شأن الغرق فى الملذات، وإعطاء الأولوية لمتع الدنيا، كأنه الديانة غير الرسمية للدولة. عندما نصل إلى هذه النقطة - وقد وصلت إليها أجزاء كبيرة من العالم الغربى - تنهار الأسرة، البناء الأساسى والأول للمجتمع، وأعراض هذا الانهيار مخيفة. ففى الولايات المتحدة الأمريكية، نجد أن ١٥٪ فقط من الزيجات الحديثة يتوقع لها - إحصائيًا - الاستمرار.

هناك الملايين من الأمهات اللاتى يتحملن بمفردهن تنشئة الأطفال بسبب غياب الأب، وهذا يؤدى إلى الكثير من الأطفال المضطربين. ولا يعانى هؤلاء الأطفال وحدهم من عدم رؤيتهم لأبائهم (إذا ما وجدوا أصلًا) فى عطلات نهاية الأسبوع، ولكن كذلك يعانى أطفال الأسر التى يعمل بها كلا الأبوين.

فهؤلاء الآباء والأمهات إنما يحاولون تبرئة ضمائرهم من تهمة إهمال أطفالهم بإغداق المزيد من المتع المادية عليهم، كاللعب، وهذه واحدة من صور الرشوة «لشراء» حب أطفالهم، وهم بذلك إنما يربون مبتزين صغارًا، وجيلًا جديدًا من المستهلكين الشرهين (جيلًا جديدًا ضحية للنزعة الاستهلاكية). ويتولى عن هؤلاء الآباء «مجموعات الأصدقاء» مسئولية التنشئة الاجتماعية للأبناء. هذه المجموعات تضم فى معظمها أحداثًا، تحولوا إلى تجار مخدرات، ونشأ ينهى عن مجرمين عتاة مستقبلًا.

(١) Paneuropa, Otto von Habsburg رقم ٤ / ١٩٩١، ص ٦.

لقد فقد الأطفال الأمريكيون منذ الستينيات ١٢ ساعة أسبوعياً كان بإمكانهم أن يقضوها من قبل مع ذويهم. وفي الوقت نفسه، تباعد الأجداد الأمريكيون عن حَفَدَتهم. وفي الفترة الزمنية نفسها، تضاعفت معدلات الانتحار بين المراهقين، وسجلت معدلات أعمال عنف الشباب زيادة بلغت أربعة أضعاف. وما كان للعنف الذى ييئه التلفزيون، وألعاب الفيديو التى تروج للعنف كحل لكل المشكلات، وتحول الجنس إلى بضاعة فى متناول الأطفال، ما كان لكل هذا أن يكون له هذا التأثير المفزع إذا ما أتاحت لهؤلاء الأطفال - الذين يلتصقون بشاشات التلفزيون - فرصة مشاهدة ما يذاع مع ذويهم ومناقشة كل ما يرونه مع آبائهم، ولكن الآباء بالطبع غائبون، وهكذا يتخطى الأطفال المحرومون من العاطفة والمشاعر الأبوية، دون وعى بذلك، الحدود الفاصلة بين العالم الخيالى والعالم الحقيقى.

ويترب على شعور الأطفال بعدم الانتفاء داخل الأسرة المفككة، وشعورهم بأنهم غير مرغوب فيهم، زيادة أعداد الأطفال الذين يعانون من الاكتئاب، حتى أصبح ٥٥٪ من المراهقين الأمريكيين من المدخنين، وهم يلجئون إلى التدخين للتغلب على الضغوط العصبية أسوة بالبالغين.

ويرى المراهق من خلال وسائل الإعلام قبل بلوغه سن الرشد ١٥ ألف جريمة قتل واغتصاب واعتداء بالضرب، وهذا ليس مستغرباً إذا ما علمنا أن هذا المراهق الحديث ما هو إلا رفيق الشاشة الصغيرة، يقضى حوالى ٣٠ ساعة أسبوعياً فى متابعة التلفزيون وألعاب الكمبيوتر. عنف يولد عنف. والمدهش فى أعمال العنف - كالتى وقعت فى مدرسة ثانوية فى دنفر عام ١٩٩٩ - أن هناك من لا يزال يتعجب من وقوع مثل هذه الأعمال^(*).

ويؤدى الميل إلى تناول الخمر دوراً أساسياً فى مثل هذه الأعمال، هذا الميل الراسخ فى أعماق الحضارة الغربية. فلقد خبرت بنفسى وأنا طالب فى يونيون كوليج عام ١٩٥٠، أنهم لا يتناولون الخمر للاسترخاء والتمتع بصحبة جيدة مثلاً، بل إنهم يشربون حتى الشمالة ليفقدوا وعيهم. وهذا الميل يبدأ فى أمريكا منذ سن مبكرة، سن الدراسة الثانوية.

كان وأد البنات حديثى الولادة فى بلاد العرب قبل الإسلام لظروف اقتصادية صعبة، أو خوفاً من العار، قبل أن ينهى القرآن عن هذه الجريمة المشينة، أما اليوم، فيتم تحديد نوع الجنين من خلال كشف مبكر بالموجات فوق الصوتية، وبناء على ذلك يتم انتقاء نوع الجنين

(*) هل ثقافة العنف التى ينشرها التلفزيون والسبينا مطلوبة لجعل الشعب الأمريكى معصناً من رفض العنف الذى يمارسه الجيش الأمريكى فى العالم، إن لم يكن لتهيئة لإمداد ذلك الجيش بأفراده؟ - (المترجم).

والتخلص من غير المرغوب فيه، ويتم من خلال هذه العملية التخلص من ملايين الأطفال قبل أن يولدوا. ففي مدينة برلين وحدها، لا يرى إلا ثلثي طفل نور الحياة. ولكن هذا لا يتم بسبب ظروف اقتصادية، فغالبية النساء الشابات يعتقدن أنهن وحدهن يملكن الحق في التصرف في «أرحامهن» حتى وإن ارتبط هذا بقتل طفل لم يولد بعد.

وبناءً على قرار خاص بالموت السريع، يتم تفتيت أجنة في مراحل متأخرة من النمو، ويتم القضاء على أطفال قادرين على الحياة. سابقاً، كان القضاء على أناس غير قادرين على الحياة بشكل طبيعي، يُعدُّ من قبيل الأعمال النازية.

و يُعدُّ التحول في موقف الرأي العام من الشذوذ الجنسي أحد الأعراض المميزة للتوحش والعبث الجنسي^(٥) الذي أحدثته «الثورة الجنسية». كان الطب النفسي حتى فترة طويلة عقب الحرب العالمية الثانية يُعدُّ الشذوذ الجنسي أحد أشكال الفساد الجنسي وإحدى صور انحطاطه الواضحة. أما في عام ١٩٧٢، فقد حدث التحول حين صنف المعجم الأمريكي لتوصيف الأمراض النفسية الشذوذ الجنسي مرضاً نفسياً، ولكن سرعان ما ظهر الشذوذ الجنسي أسلوباً للحياة، وانتفت عنه صفة المرض النفسي في الطبعة اللاحقة للمعجم. فالشذوذ الجنسي - طبقاً لذلك - ما هو إلا توجه معين في الحياة، وممارسة لاحتمال قائم، أى أنه ظاهرة طبيعية لا يجب إخضاعها للعلاج النفسي.

وبناءً على هذه المعطيات كان من الضروري إخفاء أدلة علمية قوية على حقيقة ارتباط نشأة فيروس فقدان المناعة (الإيدز) بالشذوذ الجنسي بين الرجال وما يرتبط به من عوامل اكتئاب. كما تمت محاولات لإخفاء حقيقة ارتباط هذا الفيروس بعوامل أخرى ذات تأثير سلبي على جهاز المناعة كالخمر والمخدرات^(٦).

كان يجب توجيه النظر بعيداً عن الأسباب المؤدية لظهور مرض الإيدز والكامنة، بل والمستوطنة، في المجتمع الأمريكي، ولزماً كان يجب إخفاء نشأة مرض الإيدز في مجتمع سان فرانسيسكو، وإلقاء المسؤولية بعيداً، ولن تجد أبعد من أحراش إفريقيا والقروء الخضر لتحمل هذه المسؤولية عنهم.

ولقد أدى هذا إلى أن يتعرض الزواج كمؤسسة إلى خطر داهم. إن إقبال الشواذ من

(٥) «الغابة الجنسية - Sexual Wilderness» فانس بكارد.

(٦) انظر مالك بدرى (١٩٩٧) وجاود جيل.

الجنسين، رجالاً ونساءً، على عقد زيجات بين أفراد الجنس الواحد، لهو أمر غريب وموضع للتساؤل.

تتعدد صور النهم الشديد لإشباع الملذات الجنسية كافة، فتظهر في الصور الإباحية بجميع أشكالها وجميع وسائل نشرها، وكذلك النزعات السادية والماسوشستية، وصور تبادل الأزواج والزوجات، والتحرش الجنسي، بل والاستغلال الجنسي للأطفال. وتدل هذه الصور كافة على أن الغرب يحتفل بآخر انتصاراته لنزع عوامل الكبت البشري!

الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، هي أن المجتمع الغربي أصبح في بانه مجتمعاً مدمناً أياً كانت الصورة التي يظهر عليها هذا الإدمان: خمر، نيكوتين، ماريجوانا، كوكايين، هيروين، تليفزيون، ألعاب الكمبيوتر أو الإنترنت.

تناول المخدرات والتعود عليها، يؤدي دائماً إلى المزيد من الإدمان. كذلك الحال في الممارسة الجنسية؛ حيث يدفع التعود إلى مزيد من درجات التحرر لا يستطيع المرء معه أن يتخيل إلى أين سيمضي به هذا الانحلال بشكله الواسع هذا! وليس من العجب أن يغتال كل هذا الفساد كرامة المرأة، وإحدى الصور الواضحة لذلك هي مسابقات الجمال.

يشعر الإنسان في الغرب بمزيد من الوحدة والفراغ رغم التقدم الهائل في مجال وسائل الاتصالات، وما نجم عنها من تضخم في المعلومات، حتى إن البعض يسميه «تخمة معلومات».

وعد كتاب شارلز رايش -الذي حقق أعلى المبيعات عام ١٩٧٠- «اخضرار أمريكا - The Greening of America» «المهزومين» بازدهار فكري وروحي لأمريكا بعد حرب فيتنام^(٧). أما ما عرفته أمريكا وخبرته فهو على التقيض: برودة شديدة جذت العلاقات الإنسانية، ونزعة عتف لم يسبق لها مثيل.

ومن المظاهر التي تبعث على القلق، هذه الوحدة التي تفرض على كبار السن، هؤلاء العجزة الذين يتم ترحيلهم إلى دور رعاية المسنين. من أسباب هذه الظاهرة أن هناك أعداداً غفيرة من الشباب ذوى الطموح إلى درجة الهوس بأعمالهم، والمتطلعين فقط إلى تسلق سلم

(٧) كان كتاب رايش أكثر من تحليل. لقد كان بمثابة إعلان، مانيفستو، أصاب به عصب جيله وإحساسهم ورؤيتهم للحياة.

النجاح المهني (يطلق عليهم: متسلقو الأهرام - Pyramid Climbers)^(٨). ينتقلون من مكان إلى آخر وفق انتقالهم من وظيفة إلى وظيفة^(٩)، ويؤدي هذا إلى تفكك الروابط الأسرية.

ويمكن إرجاع أسباب الوحشة كذلك إلى تقلص عدد الأسرة الحديثة إلى ثلاثة أفراد بحد أقصى، وليس ذلك فحسب، بل هناك فراغ هائل يفرض على الإنسان الغربي، حتى إنه يصير عضواً في «جماعة وحيدة»^(١٠). هذا العضو يجد نفسه وحيداً أمام عجلة قيادته برغم الزحام الذي يحيط به، وكذلك يجد نفسه وحيداً أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به.

وكان من الممكن أن تؤدي الكنيسة دوراً فعالاً في هذه الفوضى الأخلاقية، إلا أن هناك جموعاً من المؤمنين تفر فراراً من الكنيسة كلما حاولت هذه إظهار عملية تحديث لها^(١١). فالكنيسة تفقد الكثير من أهميتها حينما تغير جلدتها، وتتحول إلى مؤسسة اجتماعية تنافس غيرها من المؤسسات العلمانية والدينية. فلقد حدث في منطقة «أوبر بايرن - Oberbayern» بألمانيا أن أعلنت راهبة تابعة للكنيسة عدم إيمانها بحياة أخرى بعد الموت. كما قام بعض أساتذة اللاهوت بتحويل يسوع إلى مصلح اجتماعي فقط، وفي ظل مثل هذه الوقائع، يترك الكثير من المسيحيين المؤمنين الكنيسة، ليس إلى دين آخر، ولكن لينضموا إلى البحر الهائل من المشككين^(١٢).

نستطيع - إذاً - أن نقول إن الخبرة الأساسية التي عاشتها الحداثة هي الفشل، وكان لا بد لمشروع الحداثة أن يفشل؛ لأنه يرتكز على خطأ في التصميم، أي البناء الفكري.

يمكننا أن نلاحظ أن المسلم الذي يتناول الأمور بعين ناقدة لم يتطرق في نقده إلى نظام الدولة والاقتصاد. وإذا ما تحدثنا إليه في ذلك يأخذ في الهمهمة بأن العهد بحرية الإنسان ليس بعيداً، كما أن الدولة تنتهج منهجاً قصير النظر حيال قيم المسلمين وتراثهم. أما بالنسبة للصحافة، فإنها وإن لم تكن تخضع لرقابة حكومية إلا أنها تخضع لرقابة أخرى، تحكمها المحرمات السياسية وغيرها في المجتمع.

(٨) لقد صاغ بكارد مصطلح Pyramid Climbers في كتابه الذي يحمل العنوان ذاته في ١٩٦٢.

(٩) لن نجد عمالاً يظهر فيه إصرار العاملين على النجاح والتحرك والتنقل مثل مجال البنوك وأعمال المال والتمويل.

(١٠) لقد صاغ «دافيد ريسان - David Riesmann» هذا المصطلح في الخمسينيات من خلال كتابه «The Lonely Crowd» أي «الجمع الوحيد».

(١١) إن شألي أمريكا أقل بعداً عن المسيحية مقارنة بأوروبا، وذلك بناءً على عضوية الناس هناك في الكنائس والاعتراف العلني في المجالات العامة بوجود الله.

(١٢) لقد تنبأ أسد (١٩٣٤) بهذا التطور، فقال بما معناه: إن كثيراً من المسيحيين لم يعد يقبل أن يمتحن عقله عن طريق التعاليم التي تروجها الكنيسة مثل تجسيد الله، والخطيئة الأصلية، والفداء بالصلب، والثالوث، وتحول الخبز والنبيذ بيد القس إلى جسد ودم المسيح، فيأكل المسيحي ربه، وسينصرفون أفواجاً ليس عن الكنيسة فحسب، بل أيضاً عن دينهم.

هذه هي ملاحظات شخصية المسلم المتخيلة، هذا المسلم الذى يؤمن عن اقتناع، وي مارس الإسلام عن يقين. هذه الملاحظات التى تؤدى إلى إصدار حكم قاطع على الغرب ورفضه، بل هو يرفض رفضاً باتاً أن يقتدى بهذه الحضارة التى تعانى أزمة وجود، ويتمنى أن يبعد عن وطنه ما يؤدى به إلى هذا المصير. فهو يرى أنه ليس من العقل فى شيء أن يتبع نموذج تطور أثبت فشله، أو أن يسير خلف عملية تنوير، تؤدى فى آخر الأمر إلى لا عقلانية الإلحاد وتوابعه الحتمية.

ألا يؤدى هذا بنا إلى التساؤل: هل شاهد كل من المسلم المؤمن عن اقتناع و يقين، والمسلم بالميلاد، هل شاهد فعلاً كل منهما نفس العالم، ووصفه كل منهما حقاً؟.

نعم! لم يقم كل منهما بهذا فحسب، بل إن كلا منهما - بأحكامهما المتباينة بشدة - على حق. فهناك فى الغرب هذه الأيام الكثير مما يدعو إلى الإعجاب والافتداء به، وهناك أيضاً بالفعل ما يتنافى تماماً مع الطبيعة الإنسانية، بل ما يجرد الإنسان من إنسانيته، حتى إن كل هذا يمكن أن يؤدى إلى انهيار هذه الحضارة وإنجازاتها إن لم تسرع بتدارك الأمر.

وإذا كان الحق كل الحق مع الزميلين فى حكمهما، فإنها قد جانبهما الصواب فى رد فعليهما. فيجب عليهما - وعلى كل إنسان فى الغرب - ألا يسير خلف كل مذهب أو موجه، ولكن يُقَيَّم ويفرز، وأن يستفيد بإنجازات الغرب الحقيقية، وأن يقاوم أمراضه الحضارية. «الانتقاء هو السبيل»، ويتحقق هذا عندما نتخيل أنفسنا مرافقين لشاين مسلمين مُتَخَيِّلِينَ من الغرب، يقومون برحلة إلى الشرق المسلم؛ لأن هناك الكثير مما يثير الإعجاب، ويحض على الاقتداء به، كما أن هناك الكثير مما ينفر، بل ويثير النقد الشديد.
